



مجلة

مجمع اللغة العربية

المجلد العاشر

مطبعة التحرير

١٩٥٨

(١)

كالخط العربي الذي نقله ثلاثة من أعراب طيء
إلى جزيرة العرب .

استحدث العرب المصريون الناشئين
بالبصرة والكوفة ، على الجانب الشرقي لنهر
الفرات ، الذي يجري في أرض السواد ،
منحدرا من جبال إرمينية في الشمال ، ويصب
في الخليج الفارسي ، بعد أن يتحد مع نهر دجلة
الكبير ، فيكونا مصبا واحدا واسعا يعرف
بشط العرب ، غير أن البصرة أقرب إلى المصب
وهي في بيئة مائية بحرية . أما الكوفة فإلى
الشمال ، على مقربة من الضفة الفرات نفسه ،
تحيط بها أودية وبراري منصلة بأرض العرب .

وكان اختيار هذين المكانين لتأسيس هذين
المصريين بين جزيرة العرب والفرات ، تحقيقا
لرغبة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الذي
أوصى قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص ،
ألا يجعل بينه وبين حشد المسلمين ماء ، حتى
يستطيع إمداد الجيوش بالأمداد المتتابعة إذا
صال بهم الأعداء .

البصرة والكوفة من أعظم الأمصار التي
استحدثها العرب في الدولة الإسلامية ، إبان
تمهضتهم الدينية ، وخروجهم من جزيرة العرب لفتح
ممالك كسرى وقيصر ، وفيهما ثم في بغداد
وضعت أسس المدينة الإسلامية الكبرى ،
التي امتدت ظلها ، حتى شملت أكثر المعمور
من الدنيا القديمة ، في آسيا ، وإفريقية ،
و بعض أطراف من أوربة .

أنشأ البصرة سنة ١٤ للهجرة ، الصحابي
عتبة بن غزوان ، أحد القواد في جيش الصحابي
الجليل سعد بن أبي وقاص ، وقد رجسه
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه
لفتح ملكة فارس وما وراءها بعد خلافة أبي بكر .
و أنشأ الكوفة - بعد ذلك بنحو سنتين - أمير
الجيش سعد بن أبي وقاص نفسه ، في موضع
تخيره لها ، أسفل من موقع الحيرة والأنبار ،
اللتين عرفهما العرب قديما ، و وفدوا عليهما
للتجارة ، وأخذوا من طرائفهما وثقافتها أشياء

فقد كان موقع البصرة في بيئة بحرية ، كما قدمنا ، وكانت السفن تصل إليها من الخليج الفارسي حاملة طرائف المشرق وتجارته ، فكانت حياة أهلها مرتبطة بهذه البيئة التجارية الحضارية ، على حين كانت الكوفة على أبواب البادية ، فكانت حياة أهلها عربية خالصة .

وكان لهذا العامل الطبيعي أثر كبير في اجتذاب أنواع السكان الذين سكنوا كلا من المصريين ، فكثرت المرتزقون من حياة البحر والتجارة في البصرة من هنود وسنديين ، وقرس ، وسريانيين ، وأنباط ، ويهود ، ويونانيين ، وغيرهم . وكان فيهم مثقفون نهلوا من ثقافة المشرق في جنديسابور وغيرها من المراكز الثقافية القديمة . وكان في الكوفة أشباه هذه الأجناس ، إلا أنهم لم يبلغوا في الكثرة مبلغ النازحين إلى البصرة من الغرباء . أما العناصر العربية وخاصة اليمنية ، فكانت في الكوفة أكثر منها في البصرة ، وقد امتازت بسكنى الأسر الكبيرة من أشراف العرب ، كآل زرارة الدارميين من تميم ، وآل زيد الفزاريين ، وآل ذى الجدين الشيبانيين ، وآل قيس الزبيديين ، وسكنها نحو سبعين من الصحابة ، على حين لم يسكن البصرة منهم إلا اثنان هما : أنس بن مالك ، وعتبة بن غزوان ، وسكنها من عرب اليمن الأزديون ، وبعض قبائل من تميم ، مع كثير جداً من الموالى الذين دخلوا في الإسلام ، وعاشوا مع ساداتهم من العرب ، جنباً إلى جنب .

وقد توافر في هذين الموضعين من الأسباب ما رغب كثيرا من القبائل العربية في أن تجلو عن مواطنها الأصلية ، في الجزيرة العربية ، وتنزل المصريين المحدثين : من جمع بين مظاهر البداوة والحضارة فيهما ، وكونهما غير بعيدين عن بيئتهم وأرضهم العربية وسهولة اتصالهم بأوطانهم وقبائلهم في البادية ، وسهولة اتصالهم بالمدينة مقر الخلافة الإسلامية ؛ هذا إلى وفرة الماء والمراعى التي يحتاجون إليها في علف دوابهم وخيولهم .

وكان الغرض الأول من تأسيس هذين المصريين أن يكونا مركزين لاستقرار جنود الخلافة فيهما ، وبعضهم منها لفتح الممالك المتاخمة لأرض العرب ؛ ولذلك روعي في تخطيطهما سد الحاجة الدينية والعسكرية أولاً ، فجعل في كل منهما مسجد كبير لصلاة الجماعة ، ودار للإمارة والأداة الحكومية ، يتفرع حولهما أحياء لسكنى القبائل . وكان لقبائل اليمن فيها قسم خاص ، ولقبائل مضر قسم كذلك . وكانت كل قبيلة تسكن شارعاً أو حارة ، ليسهل على رؤساء القبائل وعرفاء الجنود الاتصال بهم ، وجمعهم للحرب ، وتدوين أسماهم وأعطياتهم في ديوان الجيش ، ومعرفة من فقد منهم أو قتل ، لتطبيق أحكام الموارث ، وتوزيع الغنائم وما إلى ذلك .

ومع ما كان بين حياة أهل المصريين من تشابه كثير ، كان بينهما خلاف جوهري أيضاً في كثير من الأمور .

يطرد «القياس» في أحكام النحو ، واستغله فقهاء الكوفة في أحكام الشريعة ، فكان أبو حنيفة النعمان وتلاميذه وأشباهم ، يقيسون فيما لم يرد فيه نص قرآني ، فاستحدثوا بذلك مذهباً فقهياً جديداً مخالفاً لمذهب الإمام مالك وأهل الحجاز الذين يعولون بعد القرآن على نصوص الأحاديث الصحيحة ، وهي كثيرة في بيئتهم ، لكثرة الرواة والحفاظ فيه من الصحابة والتابعين .

واستمرت البصرة دائمة على خلط معارف العرب ومزجها بمعارف من يساكنهم من الجاليات الأجنبية المختلفة ، وخاصة من أخذوا معارفهم عن مدرسة جنديسابور الفارسية اليونانية ، من الفرس والسريان وغيرهم ، حتى بلغت شأواً بعيداً في النشاط الفكري ، والتقدم العلمي .

أما الكوفة فكانت أبعد شيئاً عن جنديسابور ، واقتضت حياة أهلها المطبوعة بطابع البداوة العربية ، أن يتوفروا على كل ما هو عربي أصيل ، ولذلك أكثروا من رواية الشعر القديم والمعاصر الذي يذكرهم بمجد أسلافهم ، وبيلائهم في حروب الإسلام ، مما يرضى طموحهم ، فكانت الكوفة أكثر شعراً وشعراء من البصرة ؛ وكثرت في الكوفة رواية الحديث ، لكثرة من بها من الصحابة ، والتابعين . ومن ثم كثر فيها المفسرون الأثريون ، الذين ينقلون التفسير رواية ، حتى

وخلاصة هذا كله أن الحياة في البصرة كانت مختلطة أشد اختلاط بين العرب وغيرهم من الأجناس الأجنبية ، حين كانت الحياة في الكوفة تكاد تكون عربية خالصة .

وكان من النتائج اللازمة لذلك كله أن المجتمع البصري خلا أو كاد يخلو من الفواصل الطبقيية بخلاف المجتمع الكوفي الذي كانت تسود فيه الطبقات سيادة ظاهرة قوية .

وكان لهذا الطابع العام الذي يميز بين نوعي الحياة في المصرين أثر كبير في طابع الحياة العقلية والثقافية لكل منهما ، فقد حمل الأعاجم إلى كل من المصرين كثيراً من معارفهم وطوابع ثقافتهم ، فكان حظ البصرة من ذلك أكبر وأعظم من حظ الكوفة ، ولذلك ازدهرت الحياة العقلية والحضارية في البصرة ازدهاراً قوياً مبكراً . وأول ما ظهر من ذلك احتكاك الإسلام بغيره من الأديان في العقائد أول الأمر مما أدى إلى ظهور بعض الفرق الإسلامية فيها للدفاع عن الإسلام ، كالمعتزلة وغيرهم من أصحاب الآراء . وعظم النشاط الفكري ، فظهرت فيها عناصر من الثقافة اليونانية ، وقد ترجم ابن المقفع أو غيره منطق أرسطو ، فعرّفه العرب وأتقنوه ، للتسلح به في الجدل الديني ، وكان أشد الناس عناية به المعتزلة . وعرفت منه البصرة والكوفة جميعاً عنصر «القياس» الذي استغله نحاة البصرة في الدراسة النحوية الناشئة ، فكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، المتوفى سنة ١١٧ هـ

يضاف إلى ذلك أن الحياة السياسية للعرب بعد مقتل سيدنا عثمان ، اقتضت انقساماً سياسياً بين الزعماء ، فكانت وقعة الجمل بين أهل المصريين ، وقد انتعرت فيها الكوفة مقر الخلافة العلوية على البصرة ، التي اجتمع فيها المطالبون بدم الخليفة عثمان ، كطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنهم . ومنذ ذلك الحين عرفت البصرة بأنها « عثمانية » ، وعرفت الكوفة بأنها « علوية » ، لأنها كانت مقر خلافة أمير المؤمنين « علي » ، وشيعته . ونشأت بين المصريين أحقاد ، غضبا لمقتل عثمان ، وأكثره من قتل من الفريقين في تلك المعركة .

(٢)

وتكاد الروايات التاريخية تجمع على أن العرب أحسوا في نحو منتصف القرن الأول الهجري خطراً يهدد لغتهم وقرآنتهم ، بسبب ما فشا من اللحن على ألسنة الموالى والأعاجم الذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح العربية الكثيرة ، وخاصة عند قراءتهم القرآن . وقد تعدهم ذلك اللحن فسرى إلى الدراري الناشئة من أبناء العرب ، بمخالطتهم الأعاجم من الخدم والحشم . المجلوبين إلى قصور أشرف العرب ، بما استرعى انتباه الخاصة من الحكام ، وأهل العلم والرأى من العرب .

يصلوا به إلى النبي أو الصحابي ، وهو ما يعرف بالتفسير المأثور ، وقد كتبوا في ذلك عدة تفاسير ، ذكر طائفة منها ابن النديم في الفهرست . وكانت هذه الطريقة هي طريقة التفسير عند القدماء ، واستمرت إلى أن جاء الإمام محمد بن جرير الطبري ، لجمع في كتابه « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، في ثلاثين جزءاً ، أكثر ما وعته لك التفاسير القديمة ، ونظر في أسانيد أصحابها ، ووازن بين أقوالهم ، وضعف الضعيف ، ورجح القوى ؛ بأدلة علمية نظرية ، أو فقهية ، أو لغوية ؛ وكان تفسيره هذا اختتاماً لهذا الضرب من التفسير الذي عنيت به الكوفة عناية خاصة .

وكذلك عنيت الكوفة بفن القراءات عناية كبيرة فحرص أهلها على روايتها ، كما حرصوا على دراستها ونقدها ، وبيان مطردها وشاذها ، وتخرج فيها أكثر القراء المشهورين بالضبط والإتقان ، من شاعت قراءاتهم في الأمصار الإسلامية فيما بعد ، كأبي عبد الرحمن السلمي ، وزر بن حبيش ، وعاصم بن أبي النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسائي الذي كان إمام القراءة والقراء في دار السلام .

هذه بعض المظاهر العامة التي اختلفت فيها حياة أهل البصرة عن حياة أهل الكوفة ، في طبيعة المكان ، وفي خصائص المجتمع ، وفي الطابع العقلي العام .

واسكن بعض الروايات يسند إلى أبي الأسود أنه وضع أبواباً في النحو ، أو تلقف من سيدنا عليّ أبواباً منه ، كباب إن وأخواتها ، وباب التعجب ، وباب الفاعل ، وباب المفعول ... الخ ، وهذا مما يستبعده بعض الباحثين المعاصرين ، لقرب العرب في عصر أبي الأسود من غضاضة البداوة ، إذ لا بد في وضع قواعد العلوم من مدارسة واصطلاح ، لم تهباً لهما عقول العرب بعد .

وأمام تضافر الروايات التاريخية الكثيرة التي تقول إن أبا الأسود وضع قواعد في النحو الاصطلاحي ، يظن بعض الباحثين المعاصرين أن ذلك إن كان قد وقع ، فمن المتحمل أن يكون أبو الأسود قد استعان على تحقيق غرضه هذا ببعض العارفين بقواعد النحو السرياني الذي يكاد وضعه يقارن وضع النحو العربي في زمنه ونشأته ؛ أو أنه استعان ببعض العارفين بقواعد النحو اليوناني ، من مثقفي البصرة ومترجميها ، وهم كثير ، لوجود تشابه بين النحويين في كثير من مصطلحاتهما .

على كل حال ، يجد الباحثون في نشأة النحو العربي الاصطلاحي على يد أبي الأسود الدؤلي كثيراً من الغموض ، لقصور الرواية التاريخية عن الإفصاح ، واكتفائها بالتلميح ، وهو لا يفي شيئاً في تقرير تاريخ فكرة أو رأي علمي . وما قيل عن أبي الأسود ، يقال عن تلاميذه الأربعة ، الذين كان وكندهم وجلّ

وتسند الروايات التاريخية إلى أبي الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو بن سفيان الكنانى ثم الليثي المتوفى سنة ٦٩ هـ) ، من أصحاب سيدنا علي بن أبي طالب ، أنه أول من تنبه إلى هذا الخطر ، وأنه أول من فكر في درته عن اللغة والقرآن جميعاً ، ونقلوا أنه شاور في ذلك الإمام علياً ، فألقى إليه الإمام أبواباً في النحو ، وقال له : داح هذا النحو . وقيل إنه شاور زياداً أمير العراق من قبل بني أمية ، فأمره بوضع علامات الإعراب .

ونقل الرواة أن أبا الأسود استعان ببعض الكتاب على نقط المصاحف بمسداد يخالف مداد الكتابة ، وفي مواضع من الحرف الأخير من كل كلمة ، تختلف باختلاف الفتحة والكسرة والضمة ؛ وأنه استمر مدة ينقط المصاحف ، ويعلم الناس نقطها وضبطها وأنه تخرج به في ذلك أربعة من تلاميذه ، هم يحيى ابن يعمر ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ونصر بن عاصم الليثي .

وقد سموا هذا القدر — من ضبط أواخر الكلمات بالنقط — إعراباً ، لأنه تمييز بين المضموم والمفتوح والمكسور من الكلام . والظاهر من بعض الروايات ، أن ذلك كل ما عمله أبو الأسود من محاولة للمحافظة على القرآن الكريم ، لأنه كان مقرناً للقرآن ، معنياً بتعليم الناس وإقراءهم إياه .

الفرزدق في مواضع من شعره ، وكثيرا ما وقع بينهما التلاحى والتهاجى بسبب ذلك .

ووافق على هذا المنهج تلميذه عيسى بن عمر الثقفى ، فكان يخطى " النابغة " فى بعض أشعاره ، كما فى كتب الطبقات .

هكذا أراد ابن أبى إسحاق الحضرمى وتلميذه أن تحكم اللغة بضوابط حديدية ، يفرضها المنطق على المتكلمين باللغة جميعاً ، دون نظر إلى واقع اللغة ، واختلاف البيئات والقبائل ، وما كانت اللغة لتحكم بالقوانين العقلية ، وإنما المناهج اللغوية مناهج اجتماعية ، تنظر إلى ما بين أهل المجتمع الواحد من خلاف فى القوى والاستعداد والبيئات ، ولا تنظر إلى المثالية النظرية التى تعامل الناس بقانون واحد .

وكان أبو عمرو بن العلاء ، تلميذ الحضرمى أعرف من أستاذه بالطبيعة اللغوية ، إذ كان أعظم رواة البصرة علماً بأشعار القبائل وأنسابهم ، وكان من أصحاب القراءات ، يخالف أستاذه وزميله الحضرمى فى بعض أصول المذهب البصرى ، فكان أبو عمرو يقيس على الأكثر الأشيع فى كلام العرب ، فأما ما خالف الأكثر الأشيع ، فلا يدره ولا يخطى " قائله ، ولكن يعتبره لغة خاصة ، كما يعده عربياً فصيحاً .

وبهذا خفف أبو عمرو من حدة تجريد القياس ، التى اتصف بها منهج الحضرمى . بإهداره كلام المخالفين للقياس من العرب ، والقول بخطئهم .

عنايتهم مصروفين إلى نقط المصاحف ، وإقراء الناس ، فهؤلاء لم يكونوا نحاة اصطلاحيين ، وإنما سمي عملهم إعراباً ، لأنه كان مقدمة وتمهيداً للبحث فى علل الإعراب ، وهو مبدأ العمل النحوى الخالص .

وابتداء وضع قواعد النحو الاصطلاحى الواقعى ، كان على يد رجلين من أئمة القراء فى البصرة ، هما عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، وزميله أبو عمرو بن العلاء التيمى المازنى .

يقول محمد بن سلام الجمحى فى مقدمة كتابه طبقات الشعراء ، بعد أن ذكر تلاميذ أبى الأسود : " ثم كان من بعدهم عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فكان أول من بعج النحو ، ومد القياس والعلل . وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وبقي بعده بقاء طويلاً (توفى أبو عمرو سنة ١٥٤ هـ) . وكان ابن أبى إسحاق أشد تجريداً للقياس . وكان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها . "

وهذا يعنى أن ابن أبى إسحاق أول من بحث فى القياس وعلل النحو . والقياس : هو إعطاء ما توجد فيه العلة الخاصة من كلام الناس ، حكم ما توجد فيه نفس العلة من كلام العرب . وكان الحضرمى يمد القياس ، أى يطرده ، ويجعله شاملاً لا استثناء فيه ؛ فلا يحكم على ما خالف القياس بأنه شاذ ، وإنما يحكم بغلط القائل المخالف للقياس . وقد اشتهر فى دواوين الأدب أن الحضرمى كان يخطى "

— من قبل — أبياناً كثيرة على الفرزدق ،
فوقع بينهما من اللجاج والخصومة شيء كثير .

وأما يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢ هـ
فأخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء ، ونهج
منهجه في القياس . وكان له مذاهب وأهيسة تفرد
بها ، كما يقول الكمال بن الأنباري في نزهة الألبا .

وأما الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ هـ
على أرجح الأقوال ، فكان أعظم نحاة البصرة
شأناً ، وأبقاهم في العربية أثراً ، وهو شيخ
النحو الاصطلاحي ، تم النحو على يديه خلقاً
سويماً ، كامل الأصول والفروع .

أخذ النحو عن عيسى بن عمر تلميذ ابن أبي
إسحاق الحضرمي ، كما أخذه عن أبي عمرو بن
العلاء ؛ فذهبه النحوي إذن يعتمد على القياس
المنطقي مثل أستاذه ، مع ما بينهما من خلاف
في بعض أوجه النظر ، فلم يكن يتشدد في تجريد
القياس ، تشدد عيسى وابن أبي إسحاق ؛ وإنما
مال إلى قول أبي عمرو بن العلاء : إن المخالف
للأشيع الأكثر . في كلام العرب - عربي صحيح
لا يهدر ، بل يحفظ ولا يقاس عليه .

وهذا هو المراد بتصحيح القياس الذي عناه
أبو البركات بن الأنباري بقوله في ترجمة الخليل :
« كان الغاية في تصحيح القياس ، واستخراج
مسائل النحو وتعليقه » .

وينسب إلى الخليل أشياء ابتكرها ، منها
كتاب العروض ، الذي حصر فيه أوزان
الشعر العربي ، ومنها وضعه أول المعاجم العربية

ويلى هذين الإمامين في حركة تأسيس النحو
البصري ، جماعة اشتهر منهم ثلاثة رجال تم
على أيديهم استخراج جمهور قواعده ، بتطبيق
أقيسته ، وتعليل أحكامه ، وهم عيسى بن عمر
الثقفي ، ويونس بن حبيب الضبي ، والخليل
ابن أحمد الفراهيدي الأزدي . وهؤلاء الثلاثة
هم رجال الطبقة النحوية الثانية في اعتقادي ،
بعد تلاميذ أبي الأسود .

فأما عيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩ هـ ،
فتنسب كتب الطبقات إليه كتابين في النحو ،
يسمى أحدهما الجامع ، ويسمى الآخر الإكمال ،
أو المكمل ، ولا يعلم أصحاب الطبقات عن هذين
الكتابين شيئاً ، إلا ما قاله بعض الرواة ، من أن
الخليل اطلع عليهما ، ونعتهما بقوله :

ذهب النحو جميعاً كله

غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك « إكمال » وهذا « جامع » ،

فهما للناس شمس وقمر

وكان عيسى بن عمر قد أخذ النحو عن ابن
أبي إسحاق الحضرمي ، ونهج منهجه في تجريد
القياس ، وتخطيط المخالفين له . روى محمد بن
سلام الجمحي في طبقات الشعراء ، عن يونس
ابن حبيب . قال : « كان أبو عمرو بن العلاء أشد
تسلماً للعرب ، وكان ابن أبي إسحاق وعيسى
ابن عمر يطعنان عليهم » ، وقد عاب عيسى
ابن عمر على الثابتة أشياء في شعره لم يسلمها له
أبو عمرو بن العلاء كما عاب أستاذه الحضرمي

قواعده ، وتقدوا واستدركوا وصححوا ما في الكتاب من مأخذ ، وبسطوا ما فيه من إشارات ، وأوضحوا ما فيه من أصول وفروع ، وأقرموه الناس ، وملتوا به الآفاق .

وبيعض أساتذة المدرسة البصرية تخرج أعلام النحاة الكوفيين كعلي بن حمزة الكسائي ويحيى بن زياد الفراء ، وهما رجلا المذهب الكوفي وواضعا أسسه .

فأما الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، فكان شيخ القراء في الكوفة بعد أستاذه حمزة بن حبيب الزيات ، ثم صار شيخ مدينة السلام في صناعة الإقراء ، لم يمارس فنا غيرها حتى كبر ، ثم مالت نفسه بعد الكبر إلى النحو ، لما بين النحو والقراءة من رحم ماسة ، ولما مست إليه حاجة الأشراف في بغداد وشتى نواحي الدولة من التماس المؤدبين لأولادهم ، لينشئوهم على العربية الفصيحة ، إذ كان اللحن معرفة في نظر الخاصة منذ قيام الدولة الأموية إلى ذلك الحين ، فأراد أن يكون بيده زمام فني الإقراء والنحو جميعا ، ليكون جميع المقرئين والنحاة من تلاميذه ، وتبعاه له ، يرشحهم للخدمة العامة في جميع الأمصار والجهات ، بمسأله من تفوذ وسلطان عند البرامكة وغيرهم في مدينة السلام .

لذلك تخبرنا كتب الطبقات ، أنه ذهب إلى البصرة ، واتي الخليل ، وأخذ عنه ، وسأله عن عليه : من أي شيء استفاده ؟ فقال له الخليل :

المعروف بكتاب العيني ، وهو الذي اخترع ضبط الحروف بالحركات (الضمة والفتحة والكسرة) ، فأغنى الكتاب عن الضبط الذي اخترعه أبو الأسود بالنقط المخالف مدادها لمداد المكتوب ؛ ولعله اقتبس هذا من نحو اليونانيين ، كما يستفاد من كلام الخوارزمي في مفاتيح العلوم ، عندما ذكر أصل الضمة والفتحة والكسرة في النحو اليوناني ، فكلامه مشبه لقول الخليل في أن الحركات أبعاض الحروف .

أما النحو فليس للخليل فيه كتاب خاص ، وإنما أملى مسأله على تلميذه الملقب بسيدويه ، حتى قيل إن عامة الحكاية في كتاب سيويه ، عن أستاذه الخليل .

وسيدويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المتوفى سنة ١٨٠ هـ . وقد تخرج في النحو بالخليل بن أحمد ، ونقل عنه جمهور مسأله ، وحكى أقوال جماعة آخرين كيونس بن حبيب ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عمرو بن العلاء ، وابن أبي إسحاق الحضرمي ، وعيسى بن عمر .

وهذا الكتاب هو أعظم أثر باق يمثل آراء النحويين البصريين المؤسسين ، وبه تخرج نحويو البصرة والكوفة جميعا من اشتغل بالنحو بعد سيويه ، كأبي الحسن الأخفش الأوسط ، وأبي عمر الجرهمي ، وأبي بكر المازني وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ، وهؤلاء هم شيوخ المذهب وأركانه ، الذين وضخوا معالمه واستكملوا

لكن الخلاف بين الفريقين اللذين تناظرا طويلا ، وشغلا الباحثين والدارسين بخلافهما حتى اليوم ، يرجع إلى سبب جوهرى فى طبيعة المذهبين ، فقد بينا أن نزعة المذهب البصرى ، منذ أسسه ابن أبى إسحاق الحضرمى ، نزعة عقلية فلسفية ، تميل إلى طرد القياس والأخذ بأحكامه العامة ، دون نظر إلى اختلاف القبائل فى بعض الظواهر اللغوية الخاصة .

وهذا الأساس صالح جدا لتعليم الناشئين من النصارى ، وتعليم الراغبين - فى الاطلاع على الثقافة العربية والإسلامية - من الأعاجم ، بمن وضع النحو فى أول الأمر لإفادتهم قبيل أى اعتبار آخر ، وهذا سر تفوقه على المذهب الكوفى واستمرار العمل به حتى الآن فى جميع الأمصار الإسلامية ، لأنه يريح المعلمين من كثرة القواعد والأحكام .

ولكن هذا المذهب البصرى فى قياسه العام ، لإجحاف شديد بكلام الفئات القليلة من العرب الفصحاء ، وفيه إهدار لكلام القبائل المخالفة لحكم القياس على الأفتى والأكثر فى كلام العرب ، ولهذا أكثر ابن أبى إسحاق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر الثقفى من الطعن على العرب وتخطئة أمثال الفرزدق والنابغة فى أشعارهما .

وقد وجد الكوفيون الذين درسوا المذهب البصرى وأحكموه كالسكسائى والفراء ، الثغرة التى يتفدون منها إلى قلب المنهج البصرى ،

د من بوادى الحجاز ونجد وتامة ، . فأسرع إليها السكسائى ، وأقام فيها مدة طويلة ، كتب فيها عن العرب الخلف كثيرا من أشعارهم ، حتى أنفذ خمس عشرة قنينة حبر ، كما قالوا ، وعاد إلى بغداد بعد ذلك يحمل زاده الجديد ، فوجد الخليل قد مات . فناظر سيبويه مناظرته المشهورة ، وخلال له الجو بعد ارتحال سيبويه عن البصرة ، فقرأ كتاب سيبويه على الأخص سعيد بن مسعدة ، ثم استقل عن مذهب البصريين ، وأقام مذهب الكوفيين ، مخالفا للبصريين فى بعض أصول مذهبهم ، وفى كثير من الفروع . وتابعه فى دراساته تلميذه الكبير يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، فدعا أصول المذهب الكوفى ، وأوضحا سبله ، وتلقاه عنهما كثير من التلاميذ .

(٣)

ومن هذا يعلم أن المذهب الكوفى استمد من المذهب البصرى كثيرا من أصوله وفروعه لأن السكسائى والفراء درسوا كتاب سيبويه ، وتعلما منه النحو ، وعلى منهج نحاسة البصرة بنوا نحوهم ، وبقياسهم قاسوا .

وما يؤثر عن السكسائى قوله :

إنما النحو قياس يتبع

وبه - فى كل شىء - ينتفع

وطعته في الصميم . إذ كانوا يمارسون فنونا كلها تقوم على الرواية الواسعة كالقراءات ، والتفسير والشعر ؛ فأنكروا على البصريين إهدار ما سموه غير فصيح من كلام بعض القبائل ، وجوزوا القياس على كل ما سمع من العرب ، حتى لو كان يتنا واحدا ، وإن خالف الشائع الألفى في كلام العرب ؛ وبناء على ذلك الأصل جوزوا أن تبني قاعدة نحوية بالقياس على المثال الواحد ، وهو الذي سماه البصريون شاذا ، ولم يهدر الكوفيون شيئا من كلام العرب مطلقا ، مشهورا فاشيا ، أو غير مشهور .

والذي آثره الكوفيون في منهجهم هذا أقرب إلى طبيعة اللغة من المذهب البصرى ؛ الذى قاسوا فيه على الأشهر الألفى من كلام العرب ، ليلائموا بين النحو وحاجة الطالبين له الراغبين في تعلمه ، فإن إهدار بعض الكلام العربى تحمك لا مسوغ له .

لكن هذا المذهب الكوفى — مع قربه إلى الواقع اللغوى — يصاب بكثرة ما يبنى على النصوص المختلفة فى المسألة الواحدة ؛ من قواعد لا تنضبط بضابط واحد ، يسهل حفظه ، ويمكن التطبيق عليه .

هذا هو الجوهر الذى قام عليه الخلاف بين مذهبي البصريين والكوفيين فى النحو . وهناك مظاهر أخرى للخلاف بين الفريقين لا تبلغ فى الأهمية مبلغ هذا الأصل ، ولا نريد أن نوسع القول ببسطها الآن .

أما ما قيل وما يقال ، من أن سبب الخلاف بين أهل المصرين فى النحو هو العصبية السياسية ، إذ كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ؛ وكذلك ما يقال من أن الكسائى رأس مدرسة الكوفة أفسد النحو بما قاس على أشعار الحطمية وغيرهم من العرب الضعفاء الذين كانوا يقطربل وغيرها من سواد العراق ، فأكبر الظن أن هذا وشبهه كان من أسلحة الدعاية التى اصطنعها البصريون ضد خصومهم الكوفيين ، لهدم مذهبهم ؛ لأن البصريين كان يعز عليهم أن يسبقوا الكوفيين إلى تأسيس صناعة النحو فى البصرة ، قبل أن يعرفها الكوفيون بنحو مائة عام ، كما عرّتهم ما لا قوا من النجاح الكبير السريع فى إتمام بناء النحو فى هذا الزمن القصير ، وأنهم توجوا جهودهم فى ذلك بكتاب كبير خالد هو كتاب سيويه ، الذى نهل منه البصريون والكوفيون جميعا ، وبه تخرجوا فى هذه الصناعة ، ثم يجيء الكوفيون فى آخر الزمان ، فيعيون عليهم أصولهم ويخالفونهم فى كثير من فروعهم ، مع أن صناعة النحو عندهم كانت لا تزال ناشئة ، لم تستكمل أدواتها ولا وسائلها ، وليس لهم فيها كتب أو كتاب ضخم مثل كتاب سيويه .

ولكن البصريين ينسون أو يتناسون أن الأساس العملى الذى قام عليه المذهب الكوفى أساس صحيح ، يمت إلى طبيعة اللغة بصلة قوية ، وقد استمد قوته من اعتماده على علوم الرواية التى كانت قد نهضت ، وتميزت قواعدها وأصولها فى الكوفة ، وكان الشعر

إلينا من كتبه إلا تفسيره «معاني القرآن» ، وهو تفسير لغوي ضخيم ، عني فيه مؤلفه بحل مشكلات القرآن اللغوية والإعرابية ، وتوجيهها توجيها خاصا غير توجيه البصريين ، وقد أخرجت دار الكتب المصرية منه الجزء الأول. وانتفع به الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان» . فكل ما عراه في تفسيره من توجيه مشكلات النحو إلى الكوفيين ، فمن معاني القرآن أخذه بلفظه في أكثر الأحيان . وأما أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وهو أنجب تلاميذ المدرسة الكوفية بعد الفراء ، فإنما كان جل اهتمامه بإفراء تلاميذه كتب الكسائي والفراء وشرحها والتعليق على مسائل منها في مجالسه وكتبه . ولم يجمع أحد من تلاميذ المدرسة الكوفية قواعد نحوهم في كتب خاصة مختصرة أو متوسطة أو مبسطة ، فكان لكل ذلك أثر قوي في اختفاء معالم المذهب الكوفي الذي لم يمش أكثر من قرن ونصف قرن في المشرق .

وهذا على عكس ما فعله أعلام البصريين الذين دأبوا على دراسة كتاب سيديويه ، وشرحه واختصاره في صور مختلفة ، بين موجزة ، ومتوسطة ومطولة . ولم يغفلوا عن نقده والتعليق عليه ، وتقويم منآده .

وفي القرن الرابع ظهر علبان من أعلام المذهب البصري ، كان لهما أكبر الأثر في تثبيت قواعده ، وتجديد بنيانه وضمان البقاء له ، وهما أبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وتلميذه أبو الفتح بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، فقد

العربي — وهو الذي عليه المعول في كثير من الأحكام النحوية — أكثر وأقشى في الكوفة منه في البصرة . وكان لذلك كله أثر قوي طبع النحو الكوفي بطابعه المتزن ، الذي يساير طبائع المناهج اللغوية الصحيحة .

(٤)

وقد استمر الخلاف بين المذهبين على أشده في القرن الثالث بين تلاميذ الكسائي والفراء وخاصة أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبا ، وبين أعلام المذهب البصري ، وخاصة أبا العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

ثم خف النزاع بين الفريقين المتناظرين ، ولم يبق منه إلا صور ضئيلة بعد وفاة زعيم المذهبين : المبرد و ثعلب .

على أن المذهب البصري خرج من معركة النحو في القرن الثالث ، قوى البناء كثير الانصار ، كثير التأليف . وإنما كان ذلك كذلك ، لأن المذهب الكوفي مع صفاء جوهره ومثانة أساسه ، لم يجد من مؤسسه ولا من تلاميذه ، من يضع فيه كتابا كبيرا جامعا مثل كتاب سيديويه ، الذي كانت مباحث البصريين ودراساتهم تدور حوله ، فلم يترك الكسائي كتابا كبيرا في النحو ، وكل ما تركه مختصر في النحو للمبتدئين ، ذهب مع الأيام ، ولم يبق له أثر إلا في الأندلس ، على ما نشير إليه بعد . والفراء ألف كتاب الحدود وغيره ؛ ولم يصل

النديم في الفهرست ، كان من أشهرهم ابن قتيبة
عبد الله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)
وأبو حنيفة الدينوري (المتوفى سنة ٢٨٢
أو ٢٩٠ هـ) في جماعة كثيرة . ومنهم من غلب
عليه المذهب البصري ، ومنهم من غلب عليه
المذهب الكوفي ، ولكنه لم يحرم نفسه الأخذ
عن المخالفين في بعض المسائل .

ولم يعن أصحاب هذا المذهب البغدادي
بالأصول النظرية لمذهبهم الجديد ولا احتفلوا
بوضع أساس للانتخاب من المذهبين ، ولا جمعوا
مسائلهم في ديوان معين يرجعون إليه .

ولذلك شك بعض الباحثين المعاصرين في
وجود المذهب البغدادي هذا ، لعدم وجود منهج
أو قواعد ثابتة له ، ولكن وجدت بعض
مسائل نحوية تنسب إلى البغداديين في أدب
الكاتب لابن قتيبة في باب تعريف العدد المنكر . قال
ابن قتيبة : « إذا أردت أن تعرف عددا تكثر
ألفاظه ، نحو ثلاث مئة ألف درهم ، ألحقت
الألف واللام في آخر لفظ منها ، فقلت : ما فعلت
ثلاث مئة ألف درهم . هذا مذهب البصريين ،
لا يجيزون غيره . والبغداديون يجيزون : ما فعلت
الثلاث المئة الألف درهم » .

ووجدت بعض أصحاب الطبقات ينسب إلى
ابن قتيبة تأليفا صغيرا في النحو ، ومن ذكره
السيوطي في البغية ، وقد بحث عنه كثيرا فلم
أظفر به . أما الكتاب المنسوب إليه في بعض
خزائن المكتب بباريس ، فقد تبين أخيرا أنه
ليس لابن قتيبة .

أمدا المذهب البصري بأفكار جديدة ، وحجج
قوية وضحت أصوله ومناهجه ، وصححت
فروعه وشواهد ، ومدت ظلاله إلى المغرب
والأندلس ، فكان عليه المعول عندهم منذ
القرن الخامس ، حتى نبغ فيه كثير من أئمتهم ،
وتخصصوا في إقراء الكتاب ، وبشرحه ، حتى
بعد أن خفت صوت النحو بالشرق ، إلى عصر
جلاء الأندلسيين عن وطنهم .

وما أدى إلى سرعة ذهاب المذهب الكوفي
من الشرق ، أن حركة التناظر والجدل في النحو
إبان القرن الثالث الهجري ، أسفرت عن ضيق
الناس وبرههم بهذا الخلاف ، الذي يعلو فيه
الصخب أحيانا على أشياء تافهة ، كالاختلاف
على المصطلحات التي تسمى بها الأشياء ، مثل
الجر ، الذي يسميه الكوفيون الحفض ، وضهير
الفصل الذي يسميه الكوفيون عمادا ، والبذل
الذي يسمونه « الترجمة » ... إلى آخر ما هنالك
من مصطلحات لو تناولها الفريقان جميعا بلفظ
واحد ، لكان ذلك أدعى لليسر والسهولة ،
وفهم الناس عنهم في غير عناء ولا إبهام .

وقد أدى ذلك إلى قيام مذهب نحوي جديد ،
في نفس القرن الثالث عرف بمذهب البغداديين ،
ويمثله جماعة من العلماء لم يقصروا أنفسهم على
الأخذ عن شيوخهم البصريين وحدهم ، أو
الكوفيين وحدهم .

ولمّا أخذوا عن الفريقين وانتخبوا من
كل منهما ما يروقهم من الأحكام في غير عصبية
ولا تحيز ، وفي غير تمسك ولا تكلف .

ويمثل هذا المذهب طائفة ذكرها ابن

ويظهر لي أن الأندلسيين كانوا يجمعون في قراءة النحو وإقراءه - منذ عرفوا كتاب سيديويه - بين مذهبي البصريين والكوفيين ، على نحو ما كانت عليه حال البغداديين في القرن الثالث الهجري ، فلم يكن النحو في الأندلس بعد القرن الرابع بصريا خالصا ، ولا كوفيا خالصا ، وإنما كان مزاجا منهما .

يؤيد هذا أننا نجد ابن مالك - وقد نشأ في الأندلس ، وأكمل دراسته في حلب عند ابن يعيش شارح المفصل ، ثم درس في دمشق وغيرها من مدائن الشام - نجده تغلب عليه نزعة المزج بين النحويين بدرجة قوية ، بل نراه يرجح المذهب الكوفي في كثير من الأحيان ؛ وقد رد ابن مالك إلى النحو الكوفي - بصنيعه هذا - كثيرا من اعتباره الذي فقده بعد القرن الثالث في المشرق ، وكان في عمله هذا إنصاف وتقدير للمذهب الكوفي ، أكثر مما حاوله أبو البركات ابن الأنباري في كتابه «الإنصاف» ، في مسائل الخلاف ، بين البصريين والكوفيين ، ؛ فقد كانت نزعته فيه إلى تأييد المذهب البصري ، واضحة قوية .

ومنذ ألف ابن مالك في الشام كتبه المعروفة انتشرت - فيها وفيما جاورها من البلاد العربية - طريقته الخاصة في النحو ، الجامعة بين كثير من النحو البصري ، إلى قليل من النحو الكوفي ، يرجحه على نحو البصريين ، ويدفع عنه الوهن والضعف . وذاع ذلك واستفاض في الشروح والحواشي ، التي شرحت تأليف ابن مالك أو دارت حولها ، بما لا يزال مرجعا للطلاب والأساتذة ، في شتى البلاد العربية .

ولعل أكثر الآفاق الإسلامية أخذًا بالمذهب الكوفي منذ نشأته ، أفق الأندلس ، فقد وفد جودي بن عثمان أحد طلاب العلم الأندلسيين على المشرق في حياة الكسائي ، وأخذ عنه كتيبه في النحو ، وحمله إلى أهل وطنه ، فوجدوا فيه سدادا من عوز ، وكفاية لحاجة الناشئين من أبناء الأشراف وخاصة الأندلسيين فكانوا يتدارسونه إلى منتصف القرن الرابع الهجري واستغنوا به ، إذ كانت الدراسة النحوية لا تزال عندهم ناشئة في القرنين الثاني والثالث ؛ إلى أن جاء محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي ، إلى المشرق ، وأخذ كتاب سيديويه عن أبي جعفر بن النحاس ، ثم أدخله الأندلس وأقرأه تلاميذه ، وكان منهم أبو بكر الزبيدي صاحب كتاب «طبقات النحويين واللغويين» ، فكان ذلك مبدأ طور جديد من تاريخ النحو في الأندلس .

على أنه يمكن القول بأن إقبال كبار الطلاب الأندلسيين على كتاب سيديويه لم يمح من أذهانهم المذهب الكوفي جملة ، وقد استقر عندهم نحو قرنين ، وإنما استمر العمل عليه عندهم ، وخاصة في تعليم الناشئين ، ولذلك ترى ابن مضاء القرطبي (٥١٣ - ٥٩٢ هـ) في كتابه «الرد على النحاة» ، الذي حققه ونشره الدكتور شوقي ضيف الأستاذ بجامعة القاهرة ، ترى ابن مضاء هذا يؤثر تخريجات الكوفيين ، في بابي التنازع والاشتغال ، على تخريجات البصريين ، مما يدل على اعتياده مذهب الكوفيين ، الذائع في الأندلس لعده ، على الرغم من دخول كتاب سيديويه الأندلس منذ منتصف القرن الرابع .